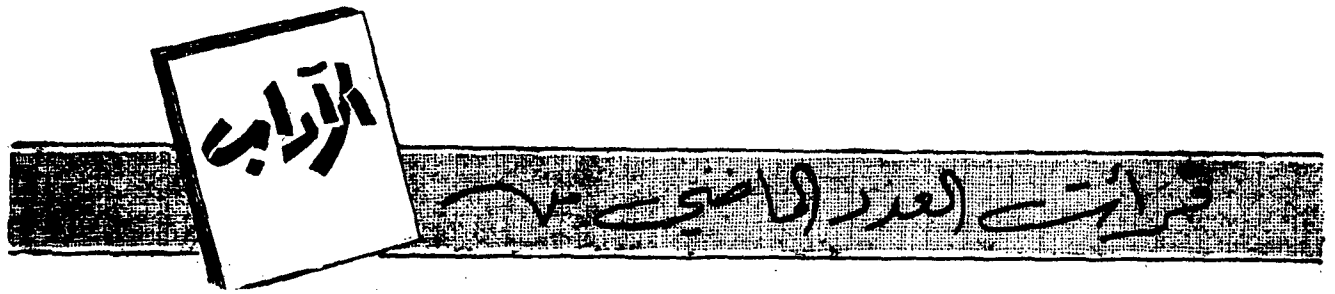

القصص

بقلم فاضل السباعي

*

اربع قصص موضوعة ضمها العدد الماضي ، ثلاث منها لكتاب سوريين ، وهذا تأكيد جديد على وفرة النتاج القصصي السوري الذي ما تفتأ تزدحم به صفحات المجلات الادبية التي تصدر عن بيروت خاصة. ومما هو جدير بالانتباه ان هذا النتاج السوري الزاخر ، انما تبدعه اقلام شابة موهوبة مثابرة ، ولئن اخطأت هدفها مرة ومرة لهي مصيبة الهدف الصحيح في غير هذه المرات لا بد .. وان تكرار المحاولة وصدقها كفيلان بصقل موهبة الناشىء واغناء ثقافته واثرائه بالتجاريب المبدعة ما دام لديه الرغبة بل العزم على المضي في حمل رسالة القلم الى النهاية.

ومما تجدر ملاحظته ايضا ، ان نتاجنا القصصي السوري - كما هو في سائر الاقطار العربية - يأبى في تلقائيته الا ان يغترف مادته الاولية من واقع الامة العربية الناهضة المنطلقة الى الامام ، منتهجا في معالجته هذه المادة الاسلوب الواقعي الواضح .. ولعمري ، ما احوجنا الى سلوك هذه السبيل ، دون سواها من السبل ، في مرحلتنا الراهنة في بناء نهضة امتنا الفنية . واما انتهاج الاساليب البعيدة عن الواقعية، المتجافية عن الوضوح ، المغرقة في متاهات لا يفك رموزها الا الراسخون فان لقراء العربية ، المنتشرين ما بين الخليج والمحيط ، عذرهم اذا ما اعلنوا قصورهم امام فهم هذا اللون من الوان الادب المغلق ! ان علينا - نحن ادباء العرب - ان نمتح ، اليوم ، من ادب الواقع ، حتى اذا غدا للغتنا ادبها الحديث الراسخ حق لنا ، او لمن شاء منا ، ان يجتاز هذا الادب ليكتب على شاكلة احدث ما توصل اليه الابداع الغربي من مذاهب ادبية فنية ، ومن غوص الى اعماق الغموض ، والاكتفاء بالتلميح ، والنهل من بحر اللاشعور .. عندئذ لن نهيب بهم : اكتبوا ما يفهمه الشعب وما يستسيغه وما ينبهه الى اجلى معاني الخير والحق والجمال ! لانه يكون قد اصبح للشعب تراثه الثقافي الفني المتداول الذي يؤهله لتفهم ادب المرحلة الجديدة .

ولقد وجدت القصص الاربع - عدا واحدة - تغترف من ينبوع الواقع .. فهي تعالج بوضوح وعلى التوالي : قضايا انسانية وخلقية ووطنية . واما القصة الاخرى ، ((وجه القمر)) ، فلعلها تريد ان تعالج مشكلة الجنس والكبت ، ولكن اسلوبها الفني الذي سردت فيه جعلني اقف حيالها في شبه حيرة معتذرا عن ابداء ايما رأي فيها !

والتفت ، بعد ذلك ، الى القصة الثانية ((الله كريم)) لاحمد سويد، القاص اللبناني الذي قل نتاجه منذ انصرف الى مهنة المحاماة فشغلته عن الادب . وتعالج قصته الجديدة هذه احدى مشكلات المرأة الكبرى : العقم .

ان القروية ((فوزية الحسوني)) لا تنجب ذرية . وهي ما تلبث تجتر مأساتها كلما خطر ببالها خاطر او سمعت قولا او انسحب امام ناظريها مشهد . وكان لا بد للكاتب ، ههنا ، من ان ينطلق بقصته من ((موقف)) ما ليمضي بنا - نحن القراء - الى الغاية التي يريد - وهكذا اختار - زمنا لقصته - يوما من ايام حزيران : ((كانت فوزية تستند بمرفقها الى النافذة المنخفضة وترنو الى البعيد غائمة الملامح شاردة النظرات .. في مثل هذه الايام تزوجت)) ..

وتعين على الكاتب ، من ثم ، ان يعرض للقصة غير متوان في ((تأزيم)) مشكلة البطلة لتستقطب اهتمام القارىء وعنايته وعطفه . وقد عمد - فيما يخيل الي - الى عناصر اربعة جعلها تتتابع في القصة واحدا في اثر الاخر ، يريد لكل منها ان يزيد في احساس البطلة بمأساتها الخاصة .

اولا : تمر بفوزية ، وهي في وقفتها القلقة ، جارتها ام توفيق ((عوافي يام علي)) .. حتى نداء الجارات لها يذكرها بانها غير ذات ولد ! ثم تمضي الجارة الى بيتها ، فان عليها ((ان تعد طعام الغداء للاولاد)) !!

ثانيا : تذهب فوزية الى حظيرة الدجاج تقدم لها طعاما : هناك تجد بين دجاجاتها ديك جارتها فطومة ، فتتذكر سلاطة لسانها ((الذي لا يفتأ يروج في القرية ان فوزية الحسوني لا تنجب ، وان بيتها لن يعرف ابدا فرحة الاطفال !))

ثالثا : في عودة زوجها حسين من الحقل ترى في ملامحه انفعالا واثار غضبة . ويحدثها فاذا الامر ان الناطور ، في حديثه معه قبل قليل ، ((يمد لسانه في خصوصياته ، ويتوقع لدرجة حملت حسين على ان يطلب اليه الكف عن الحديث ، ولكنه تمادى فعلل عدم انجاب الزوجة بنقص في رجولة الزوج)) !

رابعا : اذ تعود فوزية الى نافذتها كسيفة حزينة ، تمر بها الحاجة عيشة ، قابلة القرية :

- عوافي يام علي

- مية عوافي يا حجة ، تفضلي

- شكرا بنتي . زوجة عبدو الطبلوني - كنا عرفنا ان هذه المرأة تضع ولدا كل عام على فقر زوجها ! - في مخاض وعلي ان اسرع لنجدتها .

وهنا كان على البطلة ان تبلغ ذروة الانفعال . فاذا هي تنتفض كالملسوعة وتقبل على زوجها !

- حسين ، لقد آن الاوان لان تطلقني

ولكن حسين يضمها الى صدره بحنان ويقول :

- ربك كريم يا فوزية . ربك كريم

وهكذا شاء الكاتب ان يقرن مأساة زوجته بسماحة الزوج . ولكن في القصة ، بعد انسانيتها ، غير قليل من الصدق الفني الذي يحملك على استساغة حوادثها والتجاوب مع هذه الزوجة البائسة .

على ان لي على القصة بعض الملاحظات :

١ - لدى استذكار فوزية يوم زفافها الماضي ، تتذكر انهم ناولوها عجينة طرية وطلبوا اليها ان تلصقها على عتبة الدار استجلابا للخير والخصب والسعادة ، ولكنها ((ترددت خوفا على قفازها الابيض ان يتلوث !))

والسؤال هنا : ان فوزية قروية (كما عرفنا) وزوجة لفلاح يعمل في الحقل . فهل لبس القفاز الابيض من جملة اسباب الزينة عند القرويات ؟ ربما كان قد اتفق للكاتب ان عاين مثل هذه الواقعة بنفسه، ولكن هل تلك الندرة ، ان وقعت ، تبيح لنا استعارتها لقصة يفترض

ان تعنى بالعام المألوف لا بالخاص النادر ؟

٢ ـ كان زوجها قد جلب لها حجابا كتبه « شيخ قدير حملت على يديه الكثيرات » ، الا انها اخذت تميل الى الكفر بقدرة هؤلاء المشايخ. وعندما قالت لزوجها « انها تعتبر المشايخ كلهم دجالين .. عض شفته السفلى بتألم ، وصرخ بها : حرام عليك ، استغفري ربك يا مرا »

ووجه الانتقاد : هل يستساغ صدور مثل هذا عن امرأة قروية ساذجة ؟ ان هذه المرأة في مأساتها العميقة ، تكون في العادة اكثر استعدادا لقبول دجل الدجالين والايمان بحجبهم . ومن عجب ان يصور لنا الزوج ـ الرجل ـ اشد ايمانا بالرقى من امرأته ! ارى ان المؤلف قد اعطى المرأة نفسية رجل « متطرف » ، حين اعطى الزوج نفسية امرأة في مطلق رضاها وتسليمها للاقدار ، وذلك ليس من طبع رجال الريف في شيء ، فالريفي ان لم يعمد الى استبدال زوجة ولود بزوجته العاقر فلا اقل من ان يجمع الاثنين تحت سقف !

٣ ـ استعمل الكاتب بعض الالفاظ العامية ، في السياق ، من غير مبرر . ولئن وجد هو « راحة » في استعمالها ، الا ان القاريء العربي ـ والقصة منشورة في مجلة غير اقليمية ـ لا يرتاح لها ان لم نقل انه قد يعسر عليه فهم معانيها .

من ذلك : كانت شمس حزيران « تنشلح » على حقول القرية .. وطلبوا اليها ان « تلطع » العجينة على عتبة الباب ... و « كزت » على اسنانها من الغيظ !!!

وتعالج القصة الثالثة « على تخوم المدينة » لجورج سالم ، مشكلة الخطيئة . شاب لا يضيره ان يبادل الحب زوجة صديقه المستهترة ... ومن العجيب ان يجري التلاقي بينهما في مقبرة ! وانما ترخى المؤلف ذلك عن عمد ، لينتهي بنا الى لحظة اشراق يصحو فيها الشاب والصديقة معا من عالم الخطيئة امام جسد صغير يوسد في احدى حفرات المقبرة ليهال عليه التراب !

ولما كان من المستغرب ـ في نظر القاريء ـ ان تكون المقبرة ملتقى لعاشقين ، فقد وجد المؤلف نفسه ملزما بان يقدم للقاريء الفطن تبريرا وافيا يقر به عينا فيمنح اقتناعه للعاشق فيما وقع اختياره عليه من مكان غرام . ولقد اخلص جورج سالم لفنه كل الاخلاص اذ اجتهد في نسج خيوط هذا التبرير على ابدع نول .. فقد شاء ، قبل كل شيء ، ان يرصد القصة من وجهة نظر البطل العاشق ، بضمير المتكلم ، ليتيح له المجال للتعبير المباشر عن مشاعره وخلجات وجدانه .

ان البطل ليطالعك من البداية باعترافه وتسليمه : « ستقولون لي ، وابتسامة ساخرة ترتسم على افواهكم ، لقد كان الخطأ خطاك .. والا فهل يعقل ان يتخذ الانسان من المقبرة البعيدة الجاثمة على تخوم المدينة ملتقى غراميا ، ومكانا يتبادل فيه العشاق الهوى ، ويتطارحون القبل ؟» « لا شك في انكم مصيبون فيما تزعمون ، الا ان لي مبرراتي »

واولها ـ هذه المبررات ـ ان المدينة على وسعها ضيقة في نظره اشد الضيق ، فلا يكاد الانسان يجرؤ ان يخالف فيها ابسط ما تعارف عليه الناس من قيم ومفاهيم حتى يسلقه الناس بالسنتهم . ولكنه ما زال يشعر بان هذا التبرير غير واف .. « اتقولون لم لا تحملها الى منزلك ؟ .. حسنا ، فما افعل بأمي واخوتي الذين لا يبرحون المنزل الا لماما ؟ » ، واذا هم ذهبوا يوما في زيارة ، فهناك « الجيران الذين يطلون دائما من نوافذهم ويرقبون من يذهب او يجيء ، ومن يزور او يزار » !

اذن لم يكن بد من البحث عن مكان بعيد عن المدينة اكثر امنا . وكانت المقبرة !

ولم يكن الامر هينا مع حارسها : « اليوم عندنا جنازة » ، و « غدا بعد الظهر ايضا » ، او يقول « تفضل » !..

وهكذا يقودنا الكاتب الى غايته : الاحساس بالخطيئة من خلال عالمين على طرفي نقيض : الحب والموت . « كنا نفجر في جسدينا وحواسنا ينابيع اللذة . وكنا كأننا استحلنا الى جسد واحد » (عالم الحب).. اذا برجل « مسن يحفر طرف المقبرة ، غير بعيد عنا ، حفرة صغيرة ، فلم اباه به اول الامر ، ولكن سرعان ما حدت بي رغبة متطفلة في ان اعرف ماذا يفعل . لمحت بالقرب منه سلة صفراء موضوعة على الارض . وحين انتهى من حفر تجويف صغير جدا في الارض مد يده الى السلة فسحب منها شيئا والقى به بهدوء الى الحفرة ، فسمع له ارتطام (عالم الموت) !

وها هو ذا رد الفعل المنتظر : « ايقظ صوت ارتطام الجسد بالتراب في شيئا لا اعرفه . توقف فمي عن طبع قبلة كان يهم بها ، وظلت القبلة معلقة بالهواء ، وتراخت اصابعي التي كانت تمسك بالصديقة ، واختلطت في انفي رائحة التراب الذي نثرته ريح خفيفة برائحة عطر صديقتي » ثم لم احاول قط ان اتصل بها ، ثقوا بذلك . وهي كذلك لم تخابرني منذ ذلك اليوم البعيد القريب.

اتراها نسيتني ؟ لست ادري . ولا اكتمكم انني شعرت منذ ذلك الحين بالم حاد لم اعرف له معنى . اكان ندما مني ؟ ام شوقا اليها ؟ ام ضيقا بايامنا ؟ ام محبة وعطفا على جسد طفل صغير مات من غير خطيئة؟؟

ماذا اقول بعد ؟ اني لارى ان القصة لا تخلو ـ رغم التوفيق في سردها ـ من قسر كيما تفلح في النفاذ الى قناعة القاريء . ذلك ان اتخاذ المقبرة على الدوام ملتقى لعاشقين مسألة فيها ، رغم ما قدم الينا من تبرير ، نظر وفيها غرابة . وقد كان يمكن للقصة ان تبرأ من هذه الغرابة لو ان البطل اضطر لان يدخل المقبرة في اليوم الذي التقط فيه المرأة وبحث عبثا عن مأوى فلم يجد غير جيرة الاموات ، فكان ـ في يومه الاول ذاك ـ ما كان من صحو من الخطيئة امام ذينك العالمين المتناقضين !

ونتوقف بعد ذلك امام القصة الوطنية « الموج يغرق المدينة » لياسين رفاعية . ان مأساة فلسطين ستظل تورى فينا الاقلام ما ظلت الشوكة مغروزة في القلب المدمى . ولقد عمد كاتب هذه القصة الى واحد من الشباب العرب الذين قدر لهم ان يلازموا الارض السليبة فلا يبرحونها .

يقف « سالم » على الشاطيء يرقب البحر صنيعه كل مساء . وان صور الماضي ، الذي غبر منذ اربعة عشر عاما ، لتتوارد امام عينيه هامسة في سمعه .. وانه لشاهدها مصغ اليها مصدوع الفؤاد .

لقد كانوا ـ اصدقاؤه ومواطنوه ـ امالا مجنحة قبل ان يغدر العدو غدرته . لم يكونوا ليصدقوا . ان يوسف ، الثوري ، ليقول في يومه البعيد : « لا بد انننتصر ، سنطردهم قريبا .. وسنعمل من اجل كل هؤلاء الناس الطيبين ، سيتحدث التاريخ طويلا عنا »

ولم تكن الامال لتبخل ـ ايضا ـ على ابو جبر.. والمحامي جبرائيل ... والشيخ حسني ... : سنرميهم في هذا البحر ، المهم اولا ان يخرج الانكليز ..

ومن خضم هذه الذكريات البعيدة المتفائلة ، تطل الخيبة بوجهها الاقتم ، وتتلمظ الشفاه مرارة الواقع ! وهذا ما سعى الكاتب الى توكيده حيث سلط شمس الماضي المتفائلة الواثقة على عتمة الواقع الاظلم .

ابو جبر ، والمحامي جبرائيل : رحلا مع من رحل !

ويوسف الثوري ، الذي كان سيعمل من اجل شعبه الطيب : يرتفع ـ الان ـ صوته من اذاعة لندن « ليحيي معارفه » !

والشيخ حسني : مات مدفونا تحت انقاض مسجده ، الذي يقوم، اليوم ، مكانه ، بناء ضخم يضم « مركزا للبوليس ، ومنزلا للدعارة ، وسفارة دولة اجنبية ! »

وسلمى تعرف في اواخر القصة انه كان لسالم خطيبة بهذا الاسم ـ لا بد ان تكون الان ، قد تزوجت !

لقد اراد الكاتب لهذه القصة ان تشيع في نفس القاريء مرارة الهزيمة ومرارة الصبر على الهزيمة ومرارة الرضا بالهزيمة .. فهل تراه وفق في ما يرمي اليه ؟ ان اشخاص قصته باهتو الملامح ، بما فيهم البطل . بل ان هذه « القصة » ، في الواقع ، ليست اكثر من « لوحة » او « صورة » ، ذلك ان القاريء لا يجد في ثناياها حدثا قصصيا بالمعنى المتعارف عليه ينمو امام بصره .

حلب **فاضل السباعي**